

فالامام الشافعي قال بالندية تباسا على الشيخ الهرم
واوجب عليهما القضاء مع الندية .

اما الامام ابو حنيفة فاوجب على الحامل والمرضع
اذا خافتا على الولد القضاء لا الندية . وابطل القياس
على الشيخ الهرم لانه لا يجب عليه القضاء ويجب
عليهما . قال : فلو اوجبنا الندية مع القضاء ، كان
جمعا بين البديلين وهذا غير جائز .

وان لنا بعد هذا كله ان نقدر الآية ونرد الى
القرآن ما تنازعوا فيه . القول بنسخ الحكم فيها
بالآية بعدها ، ان لم يوهنه قول من قرروا انه حكم
مثبت من لدن نزلت الآية الى تيام الساعة .

نقد بقي ان الآيتين تشرعان لحالتين مختلفتين .
الندية على من يطيقونه .

والقضاء على من كان مريضا او على سفر . ولا
يكلف بالقضاء الا من افطر لعذر عارض لم يصوم بعد
زوال العذر ، عدة من ايام آخر . وفي مثل هذا لا تقبل
الندية بدلا من القضاء .

وانما الندية بنص الآية « على الذين يطيقونه » .
فهل هم الذين لا يطيقونه .

نستبعد ان تكون « لا » محذوفة هنا وهي
مرادة ، فالآية من آيات التشريع والاحكام ، والفعل
فيها مثبت ، وتاويلها على تقدير « لا » محذوفة ينقض
الاثبات بالنفي .

ولو كانت الندية على من لا يطيقونه ، لاخذ حرف
النفي مكانه في نص الحكم الشرعي ولم يدع لنا مجالا
لان نختلف على تاويله بين التقيضين من اثبات ونفي .

واذ قال تعالى : « وعلى الذين يطيقونه » لما
ينبغي ان نتاويلها بالنفي فنخرجها الى نقيض حكمها
الصريح المثبت نصا .

واحسب ان الذين تناولوا الآية على تقدير حذف
« لا » صراحة او مالا ، فهموا « يطيقونه » بمعنى
يستطيعونه . وليست الكلمتان سواء .

في لفظ الاستطاعة حس الطوعية والموانسة
والقدرة .

اما الطاقة فهي في العربية لغة القرآن ، أقصى
الجهد ونهاية الاحتمال .

وحين يقول العربي لصاحبه :

« هل تطيق هذا »

لا يقولها الا وهو يقدر ان هذا مما لا يحتمل ولا
يطاق .

واستعمال القرآن للطاقة اسما ومعلا ، يؤذن
بانها مما يستند الجهد وطاقة الاحتمال ، كما تشهد
بذلك آياتها الثلاث وكلها من سورة البقرة .

« تناولوا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده » 149

« ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به » 286 وبها
نستأنس في فهم الآية الثالثة :

« وعلى الذين يطيقونه ندية طعام مساكين »
فندرك ان الامر في احتمال الصوم اذا جاوز الطاقة
وخرج الى ما لا يطاق ، سقط التكليف ، لانه لا تكليف
شرعا بما لا يطاق ، والله سبحانه لا يكلف نفسا الا
وسمها .

فالندية تيسير على الذين يطيقونه ، بمعنى
يستنفذ الصوم طاقتهم وانصى احتمالهم فليسوا بحيث
يستطيعون القضاء عدة من ايام آخر .

ويصدق الحكم على المريض لا يرجى شفاؤه ،
وعلى من يتكلمونه على جهد منهم ومسر وهم الشيوخ
والمجائز ، وحكم هؤلاء الاطوار الندية . وهو على
هذا الوجه غير منسوخ .

تيسيرا على من لا يستطيعون القضاء عدة من
ايام اخر .

وثبتى الآية على صريح نصها .

« وعلى الذين يطيقونه ندية طعام مسكين »

من لا يستطيعون القضاء .

دون تاويلها على حذف « لا » الزائدة وهي
مرادة .

وهذا مثل مما قالوا فيه بحذف الحرف . يمكن
ان يصدق على حروف اخر تناولوها على الصلح .
ويقوم النص في البيان القرآني مستغنيا عن تقدير
حرف محذوف ، ولاننا الى سر البيان في الاستغناء عن
كل حرف قدره محذوف .

*

وننظر في حروف اخرى لم يقولوا فيها بتاويل
على تقدير زيادة او حذف ، وانما اخذوا فيها بمذهب

القرآني ، ومناط التعبير فيه ، هذا الانغماس والملازمة
الملاحظة في ظرفية « في » .

وحرف « من » في آية المأمون :

« نويل للمصلين . الذين هم من صلاتهم
ساهون » .

نستبعد قول من تأولوا السهو عن الصلاة في
الآية ، بأنه سهو في الصلاة ، فليس السهو فيها
بخطيئة ولا منكر ينذر معه السامي بويل . وكل مؤمن
عرضة لأن يسهو في صلاته ، فينجبر هذا السهو فيها
بسجود السهو أو بالسنة والنوافل على ما هو مقرر
في باب الصلاة من أحكام الفقه .

وانما الويل للسامين عن صلاتهم الغافلين عن
كونها قياما بين يدي الخالق ، يكبح غرور الإنسان
وينهاه من الفحشاء والمنكر ، ويرهب ضميره فينتهي الله
في اليتيم وفي المسكين مؤديا حقهما في التواصل
بالرحمة .

وصلاة الذي يدع اليتيم ولا يحض على طعام
المسكين ، لا يمكن أن تصدر من قلب خاشع وضمير
مؤمن . ونحن لا تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ،
فذلك هو السهو عنها ، تعود به طقوسا شكلية
ونفاقا يرائي به الناس .

✱

ومن الحروف التي تأولوها في القرآن الكريم
حرف الواو في آية النساء :

« فأنكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث
 ورباع » قالوا ان الواو فيها نائبة عن « أو » وقد يكتفى
ان أنقل هنا رد « ابن هشام » :

« ولا يعرف ذلك في اللغة وانما يتوله بعضهم
ضعفاء اللغويين والمفسرين » .

ثم نقل من كلام : أبي طاهر حمزة بن الحسين
الإصهاني ، في كتابه المسمى « بالرسالة المعربة من
شرف الأعراب » :

« القول فيها — أي آية النساء — بأن الواو
بمعنى (أو) ، عجز عن درك الحق . فاعلموا أن

للنحاة يقول ان حروف الجر يمكن ان تتعاقب فيماخذ
احدها مكان الآخر وينوب بعضها عن بعض . وهذا
ما يتداولونه ويستدلون به كما اشار الى ذلك « ابن
هشام » في (المغنى) (1) .

وهو مذهب رفضه من وصفهم « أبو هلال
المسكري » بالحقين من أهل اللغة ، ونقل عن « ابن
درستويه » قوله :

« في جواز تعاقبها — أي الحرفين — ابطال
حقيقة اللغة ، وامسأد الحكمة فيها ، والقول بخلاف
ما يوجب العقل والقياس .

« قال أبو هلال : وذلك ان الحروف اذا تعاقبت
خرجت عن حقائقها ووقع كل واحد منها بمعنى الآخر
فاوجب ذلك أن يكون لفظان مختلفان لهما معنى واحد.
فأبى المحققون أن يقولوا بذلك وقال به من لا يتحقق
المعاني » (2) .

وقال « ابن هشام » تعقبا على قولهم ان بعض
حروف الجر ينوب عن بعض :

« وتصحيحه بادخال (قد) على قولهم : ينوب
عن بعض ، والا تعذر استدلالهم به ، اذ كل موضع
ادعوا فيه ذلك ، لا نسلم ان هذا مما وقعت فيه
النيابة ، ولو صح قولهم لجاز ان يقال : مررت في زيد
ودخلت من امر وكتبت الى القلم . على ان البصريين
ومن تبعهم يرون في الأماكن التي ادعت فيها النيابة ،
ان الحرف باق على معناه » فان كان تجوز فهو في
الفعل ، لان التجوز في الفعل اسهل منه في الحرف (3)

ونعرض هذا الخلاف على البيان الاعلى فيأبى
ان نتاول حرما فيه بحرف آخر .

من ذلك مثلا :

قوله تعالى : « فهم في ربيهم يترددون » التوبة .

قيل ان حرف « في » يمكن ان يتأول بحرف « من »
أو « اللام » على تقدير :

« فهم من ربيهم » ، أو ، لربيهم ، يترددون »
ولا يمكن ان يقوم أحد الحرفين مقام الحرف في النص

(1) مغنى اللبيب 163/2 مصر .

(2) أبو هلال المسكري : الفروق اللغوية ، 13 ط الحلبي

(3) ابن هشام : مغنى اللبيب 163/2 .

اثباتهم جميعا على ان ينكحوا اما مثنى واما ثلاث واما
رباع .

واظن ان هذه المثل التي قدمتها تكفي لاجتلاء
سر الحرف لا يقوم مقامه غيره . ويغنى عن مزيد تتبع
هنا ، ما قد يتاح لنا من تدبر الحرف في سياقه القرآني
عند الحديث عن (الظواهر الأسلوبية وسر التعبير) .

« دلالات الألفاظ وسر الكلمة »

من قديم شغلت قضية الترادف علماء العربية
واختلفت مذاهبهم فيها . والبيان القرآني
يجب ان يكون له القول الفصل فيما اختلفوا
فيه ، حين يهدي الى سر الكلمة لا تقسوم
مقامها كلمة سواها من الألفاظ المقول
بترادفها .

والامر كذلك في الألفاظ القرآن ، ما من لفظ منها
يمكن ان يقوم غيره مقامه ، وذلك ما أدركه العرب
النحاة الذين نزل عليهم القرآن مصر المبعث وأماهم
ان يأتوا بسورة من مثله .

واحتاج هنا الى وثقة قد تطول عند مشكلة
الترادف التي طال الجدل فيها والخلاف عليها .

ولا يشغلنا تعدد الألفاظ للمعنى الواحد ، اذا كان
عن اختلاف لغات القبائل ، وذلك ما لا خلاف فيه فيما
اعلم (2) .

وانما يشغلنا الترادف حين يقال فيه بتعدد
الألفاظ للمعنى الواحد دون ان يرجع الى تعدد
اللغات :

منا من يعد هذا الترادف ظاهرة فقدان الحس
اللغوي وعدم قدرته على ضبط الدلالات وتحديد معاني
الألفاظ ، أو يراه من الفضول والتزيد الذي لا غائدة
فيه (3) .

ومنا من يرى هذا الترادف ظاهرة فنى وسعة
وقدرة على التصرف . وما أكثر من يباهون بهذا الثراء
اللغوي ويمدونه ميزة من مزايا العربية الشريفة . وان
يكن تقدم الدراسات اللغوية قد جاوز بنا مرحلة

الأعداد التي تجمع تسبان : قسم يؤتى به ليضم بعضه
الى بعض وهو الأعداد الأصول نحو « ثلاثة أيام في
الحج وسبعة اذا رجعت ، تلك عشرة كاملة » ،
« ثلاثين ليلة واتبعناها بعشر مئة مئتين ربه اربعين
ليلة » .

« ولم يقولوا ثلاث وخماس ، ويريدون ثمانية ،
كما قال تعالى : « ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا
رجعت » وللجهل بموقع هذه الألفاظ استعمالها
« المتنبى » في غير موضع التقسيم يقال :

« احاد ام سداس في احاد ليلتنا المنوطة بالنفادي »

ونستأنس في مهم مثنى وثلاث ورباع بآية ناطرة :

« الحمد لله ناطر السموات والأرض جامل
الملائكة رسلا اولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع » 34
وآية سبا : « قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله
مثنى وفرادى » 46 .

فتدرك الملحظ البياني للواو في مثل هذا السياق ،
بما تفيد من كون الملائكة ليسوا جميعا سواء ، بل منهم
اولو جناحين ومنهم اولو ثلاثة واولو اربعة . وفي آية
سبا ، تضيير يكون لهم فيه ان يقوموا فرادى وان
يقوموا مثنى . ولو قيل « مثنى أو فرادى » للزم ان
يقوموا جميعا اما مثنى واما فرادى ، ولم يكن لهم
ان يقوموا في بعض الحالات مثنى ، وفي بعض
الحالات فرادى .

ويهذا الاستئناس لا نرى السياق يستقيم ، بل
لا نراه يصح إطلاقا ، اذا ما وضعت (أو) مكان
(الواو) في آية النساء . لأن مقتضى التعبير بحرف
(أو) انه لا يسوغ لهم الا ان ينكحوا جميعا مثنى أو
ثلاث أو رباع ، بحيث لا يختلف رجل من رجل ، وليس
هذا هو الحكم المستفاد من الآية في اباحة تعدد الأزواج
ما بين مثنى وثلاث ورباع ثم لا يتجاوز وزنها السى
المحظور وراء رباع (1) ويخطئ سر العربية من يفرق
بين : مثنى وثلاث ورباع ، وبين اثنتين وثلاث وأربع
المعادلة لسع !

كما يخطئه من لا يميز بين « مثنى وثلاث ورباع »
وبين : مثنى أو ثلاث أو رباع ، بما تفيد « أو » من

(1) انظر تفسير الطبري والزمخشري : سورة النساء .

(2) السيوطي : المزهري 405 ط الحلبي

(3) ابن فارس : الصحابي في معناه اللغة 11 .

المفاضلة الساذجة بين اللغة العربية وغيرها من اللغات ، ووجهنا الى البحث في خصائص العربية منتفعين بما قدمت البحوث العلمية الحديثة في اللغويات والصوتيات ، فلم تعد كثرة الالفاظ الدالة على المعنى الواحد مدعاة فخر ومباهاة ، وانما أصبحت قضية تلتهمس حلا .

وحين ننظر فيما وصل اليها من كتب اللغة ومعاجمها ، نراها تسلك مسلكين مختلفين متباعدين :

منها ما يترر وجود الترادف فيحشد للمعنى الواحد الفاظ ذات عدد ، وهذا هو مسلك « ابي مسحل الامرابي » (في القرن الثاني هـ) في كتابه (النوادر) و « ابن السكيت » (ق 3 هـ) في (الالفاظ) . وللفيروزبادي صاحب (التاموس) كتاب في المترادفات اسمه (الروض المسلول فيما له اسمان الى الالف) .

وكتاب آخر في اسماء العسل جمع فيها ثمانين اسما .

ونقل « ابن فارس » قول من سمع « ابرن خالويه » يقول :

« جمعت للأسد خمسمائة اسم ، وللحبة مائتين »

كما نقل خبر « الاصمعي » حين سأل « الرشيد » في شعر غريب ففسره ، فقال الرشيد : يا اصمعي ، ان الغريب عندك لغبر غريب .

فقال : يا امير المؤمنين : الا اكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما ؟ (1) .

ومن قالوا بالترادف : الفراء ، وتطرب ، والفخر الرازي ، والتاج السبكي . ويوشك ان يكون هذا هو مذهب « جلال الدين السيوطي » .

وانكره علماء آخرون انكارا باتا ، الا ما كان منه في لغات عدة . منهم « ابو علي الفارسي » الذي سمع « ابن خالويه » يقول في مجلس سيف الدولة بحلب : احفظ للسيف خمسين اسما .

فتبسم ابو علي وقال : ما احفظ له الا اسما واحدا هو السيف .

ولما سأل ابن خالويه : ما بين الهند ، والصارم ، والقنبيط ، والحمام ، و .. و .. ؟

اجاب : هذه صفات ، وكان الشيخ لا يفرق بين الاسماء والصفات (2) .

وصنف ابو هلال العسكري « كتابه » الفروق اللغوية (لبيان ان اختلاف الالفاظ في لغة واحدة ، يوجب اختلاف المعاني . فاذا جرى اسمان على معنى من المعاني او عين من الاعيان في لغة واحدة « فان كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر ، والا لكان الثاني فضلا لا يحتاج اليه » .

قال : « والى هذا ذهب المحققون من العلماء ، واليه اشار « البرد » في تفسير قوله تعالى من آية 48 ، سورة المائدة :

« لكل جعلنا منكم شرمة ومنهاجا » فمطف شرمة على منهاج ، لان الشرمة لأول الشيء والمنهاج لمعظمه ومتسعه ... ويمطف الشيء على الشيء وان كانا يرجعان الى شيء واحد ، اذا كان في أحدهما خلاف للآخر ، فاما اذا اريد بالثاني ما اريد بالاول فهو خطأ .

قال ابو هلال : « والذي تاله « البرد » هاهنا في المطف ، يدل على أن جميع ما جاء في القرآن ومن العرب من لفظين جارين مجرى ما ذكرنا ... معطوف أحدهما على الآخر ، فاما جاز هذا فيهما لما بينهما من الفرق في المعنى . ولولا ذلك لم يجز مطف زيد على ابي عبد الله ، اذا كان هو هو (3) .

والى هذا ذهب « ثعلب » ونقل قول « ابرن الامرابي » : « وكل حرفين أو تعتهما العرب على معنى واحد ، في كل منهما معنى ليس في صاحبه ، ربما عرفناه فآخبرنا به ، وربما غمض علينا فلم نلزم العرب جهله .

ومرح « ابن فارس » في كتابه الصحابي : « ومذهبنا أن كل صفة منها — أي الصفات الواقعة على الشيء الواحد — معناها غير معنى الأخرى . وقد خالف قوم في ذلك فزعموا انها وان اختلفت الفاظها فانها ترجع الى معنى واحد »

(1) السيوطي : المزهري في علوم اللغة 405 حلي بالقاهرة

(2) ابن فارس : الصحابي في لغة 15 السلفية بالقاهرة

(3) ابو هلال العسكري : الفروق اللغوية ، ص 12

ونبه « الجاحظ » في أكثر من موضع في كتبه ورسائله إلى بطلان الترادف ، إلا أن يكون اختلاف لغات (1) .

*

وظلت القضية فيما أعلم محلقة لم يستقر فيها أصحاب العربية على رأي حاسم ، وإن كان مذهب القول بالترادف هو الذي غلب وراج في المعصور المتأخرة . ويقول به اليوم عدد من أصحاب التخصص في لغة وعلم الاجتماع (2) .

والى ماض قريب ، كانت قضية الترادف من بين ما شغل به المجمع اللغوي في القاهرة . وقد اقترح أحد السادة المجمعين أن نتخلف من عبء المترادفات فنصنف معجبا للألفاظ العربية يستبعد ما زاد في المعنى الواحد من لفظ واحد يختاره المجمعيون من معاجم العربية (3)

*

والقرآن الكريم كتاب العربية الأكبر ، ومن الحق ألا نأخذ في هذه القضية برأي دون عرضها على الكتاب العربي المبين » .

ولقد شهد التتبع الاستقرائي لما درست من ألفاظ القرآن الكريم ، أنه ينفي الترادف ، إذ يستعمل اللفظ بدلالة محددة لا يمكن أن يؤديها لفظ سواء ، في المعنى الذي تقدم له المعاجم وكتب التفسير عددا من الألفاظ قل أو كثر .

وهذه بعض أمثلة تجلو موقف البيان الأعلى من قضية الترادف التي اختلفوا فيها :

الحلم والرؤيا :

تفسر المعاجم أحد اللغتين بالآخر .

ونستقرى مواضع ورودهما في القرآن ، ونتدبر سياقاتها فلا يترادفان :

استعمل القرآن الأحلام ثلاث مرات : يعطى سياقاتها جميعا أنها الأضغاث المشوشة والهواجس المختلطة . وثاني في المواضع الثلاثة بصيغة الجمع ، دلالة على الخلط والتشوش ، لا تتميز فيه .

يقول تعالى على لسان المشركين :

« بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراء بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » الانبياء : 5 .

وعلى لسان الملا من قوم العزيز :

« قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » يوسف 44 .

أما الرؤيا فجاءت في القرآن سبع مرات ، كلها في الرؤيا الصادقة . وهو لا يستعملها إلا بصيغة المفرد ، دلالة على التميز والوضوح ، وجلاء المرئي وصفاء الرؤيا .

ومن بين المرات السبع ، جاءت الرؤيا خمس مرات للأنبياء ، فهي من الإلهام القريب من الوحي :

رؤيا إبراهيم عليه السلام في آية الصافات :

« وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين » 109 .

ورؤيا يوسف إذ يقول له أبوه :

« يا بني لا تصمص رؤياك على أخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين » 50 .

نتابع سياقاتها في السورة فنراها قد صدقت وتحققت :

« ورفع أبويه على المرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا » 60 .

ورؤيا المصطفى عليه الصلاة والسلام في الإسراء :

« وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » 60 . ورؤياه في الفتح :

« لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام أن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم

(1) انظر مثلا : الحيوان : 4/56 ، 200/7 .

(2) منهم الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (دلالات الألفاظ) والدكتور علي عبد الواحد في مقال نشره عن مزايا لغتنا العربية ومضائلها وشرعها ، سنة 1963 .

(3) المجلد الثامن ، من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

ومقتصرين لا تخافون ، فاعلم ما لم تعلموا فجعل من
دون ذلك فتحا قريبا » 27 .

فهذه خمس مرات من استعمال القرآن للرؤيا
للأنبياء . والمرتان الأخريان في رؤيا العزيز ، وقسده
صدقت . وفي آيتها عبر عنها القرآن على لسان الملك
بالرؤيا لوضوحها في منامه وجلالها وصدق الهامها ،
وان بدت للملأ من قومه هواجس أو هام واضغاث
أحلام .

« وقال الملك اني ارى سبع بقرات سمان يأكلهن
سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات
يا أيها الملأ أفئتوني في رؤياي ان كنتم للرؤيا تعبرون.
قالوا اضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بمعالمين»
سورة يوسف 43 — 44 .

وتمضي القصة في سياقتها القرآني ، فإذا هي
رؤيا صادقة وليست كما بدت للملأ من قوم الملك
اضغاث أحلام .

✱

آنس وأبصر :

في المعاجم : آنس الشيء أبصره ، والصوت
سبعه ، واستأنس استأذن .

فهل نقول في « آنس نارا » أبصرها ، أو نظرها ،
أو أشبه ذلك من الالفاظ التي يحتمل ان تتعاقب على
هذا المعنى ؟

نستقرئ استعمال القرآن في معطينا حس
العربية المرفه لا تقول : آنست في الشيء تبصره أو
تسمعه دون ان يؤنس .

فإذا قال العربي : آنست ، فقد رأى أو سمع
ما يؤنسه . والقرآن قد استعمال الفعل «آنس» خمس
مرات ، منها أربع في النار التي رآها موسى
عليه السلام حين سار بأهله في البرية فأنس إليها .
وهذه آياتها :

طه 10 :

« اذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا اني آنست
نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجود على النار
هدى » .

النبل 7 :

« اذ قال موسى لأهله اني آنست نارا سأتيكم
منها بخبر أو آتيكم بشهاب تبس لعلكم
تصطلون » .

القصص 29 :

« فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس من
جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا اني آنست
نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جدوة من النار
لعلكم تصطلون » .

والمرة الخامسة في آية النساء :

« وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فسان
آنستم منهم رشدا فادعوا اليهم أموالهم » .

ليس الايناس هنا مجرد ابصار لظواهر الرشيد
المادية الحسية ، ولكنه الطمانينة المؤنسة ، بعد الإبتلاء
والامتحان ، الى أنهم قد رشدوا حقا .

وجاءت من المادة في القرآن صيغة الفعل المضارع
من الاستئناس في آية النور :

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم
حتى تستأمنوا وتسلموا على أهلها » 27 .

والاستئناس فيها ليس مجرد استئذان ، وإنما
هو حس الايناس لأهل البيت ممن يدخل عليهم . ولا
يسوغ في ذوق العربية أن يقال مثلا : استأنس
الشرطي . أو جابي الضرائب أو الدائن ، وإنما هو
الاستئذان ليس فيه حس ايناس .

كما لا يسوغ استعمال « آنس » في رؤية عدو ،
أو سماع هزيم رعد أو زئير وحش .

✱

الآنس والانسان (1) :

وحس الآنس نقيض الوحشة ، هو الملحظ العام
المشترك في الدلالة لكل صيغ المادة .

ومنها الآنس والانسان :

يلتقيان في الملحظ العام لدلالة مادتهما المشتركة
« ان س » على نقيض التوحش .

(1) قدمت الاستقراء الكامل لاياتها في كتابي « مقال في الانسان » « دراسة قرآنية » المعارف 1969 .

لكنهما لا يترادفان ، بل ينفرد لفظ الانسان بلحظ خاص من الدلالة يميزه عن الآخر .

لفظ الانس يأتي في القرآن دائما مع الجن على وجه التقابل يطرد ذلك في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ تسيما للجن ، وعددها ثمانى عشرة آية .

ولملاحظ الانسية فيه ، بما تعنى من تقييد التوحش ، هو المفهوم صراحة من مقابلته بالجن في دلالتها أصلا على الخفاء الذي هو من ظواهر التوحش .

وبهذه الانسية يتميز جنسنا من اجناس اخرى خفية مجهولة غير مالوفة لنا ، ولا هي تخضع لنواميس حياتنا .

وأما الانسان فليس مناط انسانيته فيها نستقريه من آيات البيان المعجز ، انه انس محسوب ، وانما الانسانية فيه ارتقاء الى الدرجة التي تؤهله لاحتمال تبعات التكليف وامانة الانسان ، وما يلابس ذلك من تعرض للابتلاء بالخير والشر (1) .

وقد ورد لفظ « الانسان » في القرآن الكريم : في خمسة وستين موضعا نندبر سياقاتها جيمعا متهدينا الى الدلالة المميزة للانسانية .

هو في جنسه العام انس :

« خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجن من مارج من نار » آية 14 سورة الرحمن .

« ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم » آية 24 سورة الحجر .

لكنه مع انسيته يختص بالقراءة والعلم (الملق) والبيان (الرحمن) والكسب والتكليف (الانسان ، النجم 39 ، القيامة 14 ، الاسراء 17) . والجسد (الكهف 54) .

ويحتل الوصية (لقمان 14 ، المنكوت 8) .

وهيوم المكابدة وانتحام العقبة (البلد 4) .

ويحمل الامانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها واشفقن منها (الاحزاب 72) .

وهو الذي يتعرض لتجربة الابتلاء ومحنة الغواية (الفرقان 29 ، ق 16 ، الحشر 16 ، الانسان 2 ، النجم 15) .

ويزدهيه الغرور فيطغى ويستكبر ، ويفضله وهم الاستغناء من خالقه (الملق 6) وما اكثر ما يذكر القرآن الانسان بضعفه وهو انه كبحا لجحاح غروره كيلا يتجاوز قدره فيطغى ! وهو مظنة ان يتمادى به الطفيان والغرور الى حد الكفر بخالقه والوقوف منه سبحانه موقف خصيم مبين (النحل 4 ، مريم 67 : الانطار 6 ، فصلت 49 ، الزخرف 15 ، عبس 17 ، المعاديات 6) .

*

النعمة والنعيم :

وكذلك يلتقي لفظا « النعمة والنعيم » في الدلالة العامة لمادتهما الواحدة المشتركة ، ثم ينفرد كل منهما في البيان القرآني بلحظ خاص يميزه عن الآخر فلا يترادفان .

والمعاجم اللغوية لا تكاد تفرق بين الصفتين ، والمسرون يؤولون النعيم بكل ما تحتله الدلالة المعجبة للمادة .

ونستقري الصفتين في القرآن كله ، فنراه يفرق بينهما تفرقة واضحة :

كل نعمة في القرآن انما هي لنعم الدنيا على اختلاف انواعها . يطرد ذلك ولا يتخلف في مواضع استعمالها ، مفردا وجمعا ، في القرآن وعددها ثلاثة وخمسون موضعا .

أما صيغة النعيم فتختص بنعيم الآخرة . يطرد ذلك أيضا ولا يتخلف في مواضع استعمال القرآن لها وعددها ستة عشر موضعا .

منها خمسة عشر موضعا لا يحتل صريح سياقاتها أي تأويل :

التوبة 29 :

« وجنات لهم فيها نعيم مقيم » .

(1) انظر تفصيل ذلك الاستقراء في الجزء الثاني من كتابي (التفسير البياني) .

الطور 17 :

« ثم لتسالن يومئذ عن النعيم »

« ان المتقين في جنات ونعيم » .

الواقعة 89 :

ولا نستطيع امام اطراد تخصيص القرآن صيغة النعيم لنعيم الآخرة ، ان نفسرها بما حشدت كتب التفسير فيها من نعم الدنيا التي لا تأتي في القرآن الا بصيغة نعمة او نعماء .

« فأما ان كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم »

المعارج 38 :

وسر البيان فيها ان الذين الهام التكاثر في اعراض الدنيا عن التزود لآخراهم سيسألون يوم يرون الجحيم من اليقين ، عن النعيم الحق ما هو . وعندئذ يعلمون علم اليقين حقيقة النعيم الذي اضاعوه والهوام عنه التكالب على نعم الدنيا الفانية وأعراضها الزائلة (1)

« ابطع كل امرئ منهم ان يدخل جنة نعيم »

المطففون 22 :

النسأ والبعد :

« ان الأبرار لفي نعيم . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم نظرة النعيم » .

الانسان 20 :

« وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا »

« واذا رايت ثم رايت نعيما وملكا كبيرا »

المائدة 65 :

« ولادخلناهم جنات النعيم »

يونس 9 :

يأتي بهما جمهرة اللغويين والمفسرين ، تأويلا لاحدهما بالآخر ، دون اشارة الى فرق بينهما .

وفرقت بينهما من انكروا الترادف . ونستقرىء مواضع الاستعمال القرآني للنسأ والبعد فلا يترادفان :

فليس في القرآن ناسأ ، الا بمعنى الاعراض والصد والاشاحة ، بصريح النص والسياق في آيات .

الاسراء 83 :

« واذا انعمنا على الانسان اعرض وقاى بجانبه »

الانعام 26 :

« حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا اساطير الاولين ، وهم ينهون عنه ويننأون عنه وان يهاكون الا انفسهم وما يشعرون »

اما « البعد » فيأتي في القرآن على الحقيقة او المجاز ، في البعد المكاني او الزماني . المادي منهما والمعنوي ، كما هو واضح في آيات : .

التوبة 42 :

« لو كان مرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة »

سبا 19 :

« فقالوا ربنا بعد بين اسفارنا »

« الملك يومئذ لله ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم » معها آيتا : الصافات 43 ، الواقعة 12 .

لقمان 8 :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم » .

القلم 34 :

« ان للمتقين عند ربهم جنات النعيم »

الشمراء 85 :

« واجعلني من ورثة جنة النعيم » .

وتبقى آية التكاثر :

(1) اوضحت ذلك بمزيد تفصيل في تفسير سورة التكاثر بالجزء الاول من (التفسير البياني للقرآن الكريم) .

حلف ، والقسام :

يقال بترادفهما كما نرى على ذلك صاحب التاموس . وقد تلى حلف في شواهد من الشعر الجاهلي بمعنى اقسم ، في مثل قول النابغة :

« حلفت فام اترك لنفسك ربية »

والامشى :

« حلفت له بالراقصات الى منى »

وشاس بن عبده :

« حلفت بما ضم الحبيج الى منى »

لكن التبع الاستقرائي للمادتين في القرآن الكريم يمنع ترادفهما :

جاءت مادة « حلف » في ثلاثة عشر موضعا ، كلها بغير استثناء في الحث باليمين .

والغالب ان ياتي بالفعل مستندا الى المنافقين كآيات التوبة :

« وسيعلفون بالله لو استظننا لخرجنا معكم ، يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » (42)

« ويحلفون بالله انهم لمنكم وما هم منكم » (56)

« يحلفون بالله ليرضوكم والله ورسوله احق ان يرضوه ان كانوا مؤمنين » (62)

« يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم » (74)

« يحلفون لكم لترضوا فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » (96)

« وليحلفن ان اردنا الا الحسنى ، والله يشهد بانهم لكاذبون » (107)

ومعها في المنافقين كذلك آيات :

النساء 62 ، المجادلة 14 ، 18 .

وآية القلم :

الزخرف 28 :

« قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين »

الانبياء 109 :

« وان ادري الاقرب ام بعيد ما توجدون »

الفرقان 12 :

« ذا رانهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا »

النمل 22 :

« فمكت غير بعيد فقال احطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ بنبا يقين »

سبا 52 ر 53 :

وانى لهم التناوش من مكان بعيد ، وقد كفروا به من قبل ويقدفون بالغيب من مكان بعيد »

فصلت 44 :

« اولئك ينادون من مكان بعيد »

ق 32 :

« وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد »

آل عمران 30 :

« تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا »

المارج 6 :

« انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا »

الانبياء 101 :

« اولئك عنها مبعدون »

هود 83 :

« وما هي من الظالمين ببعيد »

هود 95 :

« الا بمدامدين كما بعدت لمد »

هود 14 :

وقيل بعدا للقوم الظالمين »

مما هود 60 ، 68 المؤمنون 41 ، 44 .

وابعد في المعنويات مثل شقاق بعيد (البقرة 176 ، الحج 53 ، فصلت 52) وضلال بعيد (ابراهيم 3 ، النساء 6 ، 126 ، 136 ، 167 ، الحج 12 ، الشورى 18 ، سبا 8 ، ق 27 ، الشورى 18) .

ياتي دائما في مقابل القرب .

على حين يخلص الناي للمعنوي المحض ، في الصد والامراض نقبض الاقبال .

« ولنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة » البقرة
35 والاعراف 19 .

« فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك »
طه 117 .

على حين يستعمل « امرأة العزيز » وامرأة نوح ،
وامرأة لوط ، وامرأة فرعون .

وقد يبدو من اليسير ان يقوم احد اللغظين مقام
الآخر ، فنفس زوج آدم بامرأة آدم ، وامرأة فرعون
بزوج فرعون .

وذلك ما يباه به البيان المعجز .

وهو الذي يعطينا سر الدلالة فى الزوجية مناط
العلاقة بين آدم وزوجه فى قصة اول زوجين من
البشر . ولم تكن زوج آدم نمطا من النساء او امرأة
من اخريات ، بل كانت وحدها الزوج ، وكانت الزوجة
ولا شئ غيرها ، مناط علاقتها بآدم وسر وجودها .

وليس الامر كذلك فى امرأة العزيز وامرأة نوح
وامرأة لوط وامرأة فرعون ، وسياق الحديث عنهن من
حيث هن أنفاس من النساء ، وليس من العلاقة الزوجية
بينهن وبين أزواجهن . والعبرة فى قصصهن ان كل
واحدة منهن مضرب المثل :

امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ؟

امرأة نبي وتخونه !

امرأة طاغية متجبر كافر ، تؤمن بالله .

ونستقري استعمال القرآن للفظ زوج وأزواج
فنجد هذا الملحظ فى كون العلاقة الزوجية هي التي
يوجه اليها السياق :

آيات (النساء) فى النفس الواحدة خلق منها
زوجها (الاعراف 189 ، الزمر 6 ، الروم 21 ، النحل
72) وفى الزوجين خلقهما الله من نفس واحدة ، او
من ذكر وانثى : (النساء 1 ، الاعراف 188 ، الزمر 6 ،
النحل 72 ، الروم 21 الشورى 11) ومعها : النبا 8 ،
الشعراء 166 ، والذاريات 49 ، النجم 45 ، القيامة
19 ، فاطر 11 .

وفى فلك نوح جعل فيها من كل زوجين اثنين :

المؤمنون 27 ، هود 40 .

وفيما شرع الله من احكام الزوجية ، وما نزل
فى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم من توجيهات ،

« ولا تطع كل خلاف مهين ، همار مشاء بنميم .
منايع للخير معتد اثيم »

وجاء الفعل مرة واحدة مسندا الى الدين آمنوا ،
نوجبت عليهم كفارة الحنث باليمين :

« ذلك كفارة إيمانكم اذا حلفتم » المائدة 89 .

* x *

اما القسم فيغلب استعماله فى الايمان الصادقة .
وجاء موصوفا بالعظمة فى آية :

« وانه لقسم لو تعلمون عظيم »

وجاء الفعل فى الشهادة ومثلها ، حيث لا يحمل
الحنث باليمين . كالشهادة حين الوصية (المائدة
106 ، 107) .

وحين يسند القسم فى القرآن الى المجرمين او
الكفار ، فانهم يقسمون عن اقتناع بصدق ما يقسمون
عليه .

الروم 55 :

« ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير
ساعة »

الانعام 109 :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية

ليؤمنن بها »

ومعها آيات :

الاعراف 49 ، ابراهيم 44 ، المائدة 53 ، النحل
38 ، النور 53 ، فاطر 42 .

وامام هذا البيان القرآني ، لا يهون ابدا ان نفس
القسم بالحلف ، وصنيع القرآن يلفت الى فرق دقيق
بين هذين اللغظين المقول بترادفهما .

فان لم نقل ان القسم لليمين الصادقة ، والحلف
لليمين الكاذبة ، على اطلاقهما . فلا اقل من ان يكون
بين دالتهما الفرق بين العام والخاص : فيكون القسم
لمطلق اليمين بعمامة . ويختص الحلف بالحنث فى
اليمين ، على ما اطرده استعماله فى البيان الاعلى .

* x *

زوج ، وامرأة :

وترى البيان القرآني يستعمل لفظ « زوج »
حيثما تحدث عن آدم وزوجه :

مثل آيات البقرة 230 ، 240 ، آل عمران 90 النساء
11 ، 19 الانعام 139 ، الحجر 88 ، النور 6 ، 30 ،
طه 131 ، التحريم 1 : 5 ، المجادلة 1 ، المتحنة 11 ،
الاحزاب 28 ، 37 ، 50 : 59 .

* × *

واكتفى بما قدمت من شواهد وأمثلة تؤيد ما
ذهب اليه المحققون من أهل اللغة في انكار الترادف الا
ان يجيء في لفتين : « فاما ان يجيء في لغة واحدة
فمحال ان يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن غير
المحققين من النحويين واللفويين ، وانما سمعوا العرب
تتكلم بذلك على طبائعا وما في نفوسها من معانيها
المختلفة ، وعلى ما جرت به عادتها وتعارفها ، ولم يعرف
السامعون تلك العلل والفروق فظنوا ما ظنوه من ذلك
وتأولوا على العرب ما لا يجوز في الحكم » (1)

وقد ينبغي لي ان اعترف هنا بقصوري من لمسح
سر الدلالة لبعض الفاظ تبدو مترادفة ، فليس لي ان
اقر بالمجاز وانا اتمثل بكلمة ابن الامرابي :

« كل حرفين أو قمتها العرب على معنى واحد ،
في كل منهما معنى ليس في صاحبه ، ربما عرفناه
فاخبرنا به ، وربما قمض علينا فلم نلزم العرب
جهله » (2) .

الاساليب وسر التعبير

قد تكون مرثنا البلاغة العربية علما وثقافتها
صناعة ومنطقا .

غير اننا ما نزال في أشد الحاجة الى ان نجعلها
ذوقا أصيلا وحسا مرهقا في آيات الفصاحة العليا
والبيان المميز .

الاستغناء عن الفاعل :

واحاول فيما بقي من المجال المحدود للبحث ،
ان اقدم بعض ما هدى اليه البيان القرآني في اساليب
غاب عن كثير منا سر التعبير فيها والبيان .

(1) أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية 12 .

(2) أبو هلال العسكري : الفروق اللغوية 65 .

من الظواهر الاسلوبية اللافتة في البيان المميز
ظاهرة الاستغناء عن الفاعل التي توزعت في دراستنا
وكتبتنا بين ابواب شتى متباعدة ، لا تغطي سر هذا
الاستغناء ، فانت تقرا في الصرف كيفية بناء الفعل
للمجهول وصيغ المطاوعة . وفي النحو احكام نائب
الفاعل . اما لماذا حذف الفاعل فذلك موضوع آخر
ندرسه في علم آخر هو علم المعاني التي انفصلت عن
الامراب فعاد هذا الامراب صنعة ، وهو في الاصل من
صميم المعنى . كما ندرس في علم البيان اسناد الفعل
الى غير فاعله على سبيل المجاز ، دون ان نحاول جمع
هذا الشتات المنتشر للظاهرة الاسلوبية لاجتلاء سرها
الذي من أجله تستغنى العربية عن الفاعل فتسند الى
غير فاعله : بالبناء للمجهول ، او بالمطاوعة ، او
بالاسناد المجازي .

— ♦ —

وقد لفتني اطراد ظاهرة الاستغناء عن الفاعل في
البيان القرآني في موقف واحد هو موقف القيامة :

اما بالبناء للمجهول في مثل آيات :

« فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة »

« وحملت الارض والجبال فهدت دكة واحدة »

« اذا رجت الارض رجا . وبست الجبال بسا »

« يوم ينفخ في الصور فتاتون افواجا »

« وفتحت السماء فكانت ابوابا . وسيمرت

الجبال فكانت سرايا »

« فاذا النجوم طمست . واذا السماء فرجت .

واذا الجبال نسفت »

« اذا الشمس كورت . واذا النجوم اكدرت .

واذا الجبال سيرت . واذا المشار عطشت . واذا

الوحوش حشرت . واذا البحار سجرت . واذا النفوس

زوجت . واذا المودودة سئلت . باي ذنب قتلت . واذا

الصحف نشرت . واذا السماء كسحت . واذا الجحيم

سعرت . واذا الجنة ازيلت . علمت نفس ما احضرت »

« كلا اذا دكت الارض دكا دكا »

« وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الانسان واني له الذكرى »

« افلا يعلم اذا بعث ما فى القبور . وحصل ما فى الصدور »

ومعها آيات النفخ فى الصور ، وكلها بلا استثناء مبنية للمجهول .

واما ان يستغنى عن ذكر الفاعل ، باسناد الحدث الى غير فاعله مطاوعة او مجازا كما فى آيات :

« اقتربت الساعة وانشق القمر »

« فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان »

« اذا السماء انفطرت . واذا الكواكب انتثرت »

« اذا السماء انشقت . وادنت لربها وحقت »

« واذا الارض مدت . والقت ما فيها وتخلت »

« يوم تشقق الارض عنهم سراعا »

« يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا »

« فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين »

« فاذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع

الشمس والقمر »

« واخرجت الارض اثقالها . وقال الانسان مالها .

يومئذ تحدث اخبارها »

والبلاغيون يقولون فى حذف الفاعل ، انه يحذف

لخوف منه او عليه ، وللعلم او الجهل به .

وقد مضى المفسرون على تقدير فاعل محذوف

لاحداث يوم القيامة ، هو الله سبحانه ، او ملك من

ملائكته؛ مع وضوح العمد فى البيان القرآنى الى صرف

النظر من الفاعل والاستغناء عن ذكره . واكثر ما قالوه

فى تاويل ذلك ، ان الفاعل محذوف للعلم به . وفى القرآن

آيات لا تحصى لم يحذف الفاعل فيها مع يقين العلم

به . فما سر ظاهرة الاستغناء عنه فى احداث القيامة ؟

يهدينا تدبر السياق الى :

ان اساليب البناء للمجهول والمطاوعة والاسناد

المجازي الى غير الفاعل ، تلتقي جميعا فى الاستغناء

عن ذكر الفاعل .

ان اطراد هذه الظاهرة فى موقف البعث

والقيامة ، ينه الى اسرار بيانية وراء ضوابط الصنعة

الاعرابية والاحكام البلاغية التى تجمدت فى اجراءات

المنطق البلاغى .

فبناء الفاعل للمجهول ، فيه تركيز الاهتمام على الحدث بصرف النظر عن محدثه .

والمطاوعة ، فيها بيان للطواعية التى يتم بها الحدث تلقائيا او على وجه التسخير ، وكأته ليس فى حاجة الى فاعل .

والاسناد المجازي ، يعطى المسند اليه فاعلية مؤكدة محققة ، تجعله يحل محل الفاعل الاصلي ويغني عن ذكره .



السجع ورعاية الفواصل :

مند بدا عصر التأليف فى الدراسات القرآنية والبلاغية ، فرضت قضية الفواصل نفسها على الاجيال الاولى من علماء العربية ، وان لم تستقل بمباحث مفردة ، بل جاءت عارضة فى ثنايا المصنفات القرآنية المبكرة .

فابو عبيدة من القرن الثانى للهجرة ، يقف فى كتابه (مجاز القرآن) عند الفاصلة بين حين وآخر ، اذا لحظ فيها عدولا من مالوف الاستعمال اللغوي ، موجها همه الى الاحتجاج لهذا العدول بان « العرب تفعل ذلك فى كلامها » وهي العبارة التى تلقانا كثيرا فى (مجاز القرآن) .

كذلك لم يعرض « الفراء » وهو من لغوي القرن الثانى - ت سنة 207 هـ - لمسألة الفواصل عرضا مباشرا فى كتابه (معاني القرآن) ولكنه حدد رايه فى موقف القرآن منها تحديدا صريحا فى تفسيره اللغوي لمعاني القرآن ، وترجيحه بين القراءات . وعنده ان القرآن يراهي الفاصلة عمدا ليتحقق بها جمال النظم ؛ فيقدم او يؤخر ويؤثر لفظا على آخر فى منسأه ، او يعدل من صيغة للكلمة الى صيغة اخرى ، رعابنة للفاصلة ، او رموس الآيات ، كما يسميها ، كالذي تراه مثلا فى توجيهه لفواصل من سور الرحمن ، والضحى ، والفجر .

وعلى كثرة ما عرض « القراء » للفواصل وبخاصة فى السور المكية ، لم يذكرها باسم الفواصل وانما هي عنده رموس آيات ، وان ثبت على مذهبه فى ان القرآن يرهاها قصدا الى رعاية الجرس الصوتي والمشاكله اللفظية . مع تحاشيه ذكر « السجع » .

وانكر « ابن قتيبة » مذهب « الفراء » فى هذه الرعاية اللفظية للمقاطع ورموس الآيات .